

الفصل الثالث

اليهود في عقل الأدباء الصهاينة

طرحت الصهيونية حلاً للمسألة اليهودية ومن ثم نجد أن الأدباء الصهاينة اهتموا إما اهتمام باليهود والمسألة اليهودية ، ومن أهم هؤلاء جوردون وبيرديشفكي وجوزيف بياليك وشاؤول تشرنخوفسكى :

يهودا جوردون (١٨٨٣م - ١٨٨٢م)

شاعر وقاص وناقد كتب بالعبرية، وهو من مواليد ليتوانيا . ويُعدُّ من أهم دعاة حركة التنوير اليهودية ومن أهم المعبرين عنها ، ولكن فكره وتمردُه ضد التراث الديني اليهودي يشيان بما في داخله من بذور الصهيونية .

تلقَّى جوردون تعليماً تقليدياً في طفولته . وفي سن السابعة عشرة ، تلقى تعليماً غربياً حديثاً ، ودُرِّس عدة لغات (الروسية الألمانية البولندية الفرنسية الإنجليزية) . وتخرَّج في إحدى الكليات التربوية الحكومية عام ١٨٥٣م وعمل مدرساً في مدارس الحكومة .

انضم جوردون إلى جماعة من دعاة حركة التنوير كان من أهم أعضائها شاعر العبرية أبراهام دوف لينسون وابنه مينخا . تبنَّى جوردون

فكر حركة التنوير تماماً ، وشن هجوماً شرساً على التقاليد الدينية ،
واقم اليهودية بأنها دين متحجر يحول اليهود إلى شعب من الكهنة ،
وطالب بإدخال القيم المادية العلمانية في حياة اليهود . وكان مديراً
لجمعية نشر الثقافة بين يهود روسيا ، وهي من أهم جمعيات نشر مثل
حركة التنوير .

كتب جوردون كتابات ثرية عديدة ، من بينها مقالات بالعبرية
والروسية . ولكن إسهامه الأدبي الأساسي هو أشعاره ، ويُقسّم النقاد
أدبه إلى مرحلتين أساسيتين : مرحلة رومانسية ، وأخرى واقعية :

١ - المرحلة الرومانسية : وهي المرحلة التي قاد فيها حركة التنوير
التي تهدف إلى إصلاح اليهود وتحويلهم إلى شعب متعج . وتتناول
قصائده في هذه المرحلة الموضوعات التاريخية والتوراتية وبعض
الموضوعات السائدة في عصره ، وإن كان تناوله ليس مباشراً أو واقعياً .
وتعكس قصيدة « داود وبرزيلاي » (١٨٥١م - ١٨٥٦م) الدعوة
إلى العودة للأرض . وتؤكد القصائد الأخرى في هذه المرحلة روح
الاعتزاز بالذات القومية التي كان يرى جوردون أنها تنعكس في بعض
شخصيات العهد القديم .

واهم قصائد هذه المرحلة قصيدة « بين أنياب الأسد » (١٨٦٨م)
التي تحكي قصة سيمون برجورا (أحد أبطال التمرد اليهودي الثاني ضد
الرومان) ونهايته المأساوية . وفي هذه القصيدة ، ينحى جوردون
باللائمة على التعاليم الحاخامية التي أدت باليهود إلى رفض الحياة وقبول

العبودية ، وإلى أن يقبعا خلف الأسوار ويكونوا موتى في الأرض أحياء في السماء « فتراب كتابكم وأوراق أحاديثكم الجافة غطتكم تماماً وجعلت منكم مومياء حية لعدة أجيال » .

ومن الواضح أن رومانسية جوردون من النوع النيتشوي الذي يُمجد القيم العضوية والحيوية وقيم البطولة . ومن أهم قصائد هذه المرحلة أيضاً قصيدة « استيقظ يا شعبي » (١٨٥٦ م) ، وهي دعوة لليهود أن يتبنوا مثل حركة التنوير وأن يخرجوا من ظلمات الجيتو ويتعلموا العبرية وينبذوا اليديشية ويعملوا في الحرف اليدوية المنتجة وفي الصناعة والزراعة . وقد اختتم هذه القصيدة بالكلمة الماثورة التي أصبحت فيما بعد شعاراً لهذه الحركة : « كن يهودياً في بيتك وإنساناً خارجه » . ومع هذا ، يظل التوجه نحو فكرة الشعب العضوي (فولك) ، والكتلة القومية المتماسكة وليس نحو الفرد ، على عكس مثل حركة الاستنارة التي كانت تتوجه أساساً إلى الفرد . ومن أهم أعمال هذه الفترة القصص الخرافية الوعظية التي كتبها جوردون علي نمط خرافات إسوب ولافونتين وكريلوف وسخر فيها من معاصريه أعضاء الجماعات اليهودية الذين نبذوا مثل حركة التنوير وعاشوا في الظلام (بحسب تصوّره) .

٢ - المرحلة الواقعية : يشكل عام ١٨٦٧م نقطة حاسمة في حياة جوردون ، إذ وقف إلى جانب ليلينبوم في دعوته إلى الإصلاح الديني . وكانت قصائده في هذه المرحلة هجوماً مباشراً لا هوادة فيه، في شكل قصص ساخرة ، على الخرافات الدينية والتحلال الحياة الدينية الذي أدت

إليه الشعائر اليهودية التي كان يرى جوردون أنها معادية للحياة . وأهم القصائد هي « اليهود [الياء] أو أترفه الأشياء » التي أتمها عام ١٨٧٦م ، وهي تتناول مأساة امرأة شابة مطلقة لا يمكنها أن تتزوج مرة ثانية لأن الحاخام رفض الاعتراف بقسمة الطلاق لأن توقيع زوجها ينقصه حرف اليود (أي حرب الياء وهو أصغر الحروف في اللغة العبرية) ، ولذا فهي تظل مطلقة (عجونه) لا يحق لها الزواج . أما قصيدة « اليوسفان بن سيمون » ، فهي هجوم على القهال ورئيسه الذي تأمر وأرسل أحد دعاة حركة التنوير ، ويُسمى يوسف بن سيمون ، إلى السجن بدلا من لص قاتل يحمل نفس الاسم .

ومن قصائد هذه المرحلة قصيدة « الملك صدقياهو في السجن » ، وهي مونولوج درامي يعبر عن احتجاج آخر ملوك يهودا ضد روحانية الأنبياء التي قضت على حياة اليهود العادية والطبيعية وعلى وجودهم السياسي . وهذا الموضوع كامن ومتكرر وأساسى في الأدبيات الصهيونية ذات الطابع النيتشوى .

وقد أخذت الموضوعات الصهيونية تظهر على السطح بشكل أكثر تزايداً ووضوحاً ، ففي قصيدة « لمن أعمل » يلاحظ الشاعر أن مُثُل حركة التنوير أدت إلى اندماج الشبان اليهود في مجتمعهم . وهذا تناقض كامن في حركة التنوير العبرية ، فهي تدعو إلى الاندماج في المجتمع ، وفي الوقت نفسه تدعو إلى بعث العبرية التي تعزل المتحدثين بها عن مجتمعهم . ولذا ، نجد أن هذا الداعية للتنوير يقول « من بوسعه أن يجربني عن المستقبل ، لعلني آخر شعراء صهيون وملك آخر القراء » .

وبعد تعثر التحديث في روسيا عام ١٨٨١م ، نبذ جوردون مثل الاندماج ولكنه لم يتبن فكرة هجرة اليهود . وفي قصيدته « أختي روحاماه » (١٨٨٢م) ، يدعو جوردون اليهود إلى الهجرة ولكنه يرى أن الهجرة يجب أن تكون إلى الولايات المتحدة لا إلى فلسطين العثمانية . وقد وصل جوردون إلى صيغة صهيونية تشبه الصيغة الآحاد هعامية « لن يتحقق خلاصنا الروحي » . وقد أشار آحاد هعام إلى دينه الفكري لجوردون . وجوردون هو الذي أشاع عبارة « يا بيت يعقوب هلم فلنسلك في نور الرب » (أشعيا ٥/٢) التي استخدمها في مقال له عام ١٨٦٦م ونادى فيها بأن يصبح اليهود جزءا من أوروبا . وقد أصبحت فيما بعد شعاراً لأعضاء جماعة البيلو الذين استوطنوا في فلسطين . ولعل هذا يبيّن التناقض الكامن في مثل حركة التنوير اليهودية .

وكتب جوردون نقداً لكتاب بنسكر الانعتاق الذاتي ، ولكنه كان نقداً متعاطفاً ، كما أنه عبّر عن حماسه لاستعمار إنجلترا لمصر عام ١٨٨٢م إذ رأى أن هذا الاحتلال سيزيد من أهمية فلسطين كمبر إلى مصر ومركز للتجارة الآسيوية « وقد يجذب الحكم البريطاني كثيراً من إخواننا الدياسبورا ليستقروا في فلسطين ليحرثوا أرضها وينوا السكك الحديدية ويحيوا التجارة والفنون والحرف » . ونادى بإنشاء جمعية من أجل الذاهبين إلى فلسطين ، أي إنه تبني المشروع الصهيوني بكل أبعاده .

ورغم أهمية جوردون كشاعر يكتب بالعبرية ، فإن كثيراً من النقاد
يعملون إلى القول بأنه لم يكن شاعراً وإنه كان ناظماً للقصائد ومهيجاً
اجتماعياً بالدرجة الأولى . وقد ترجم جوردون كثيراً من الأشعار
الغربية إلى العبرية ، وهو يعد من المجددين في الشعر المكتوب بالعبرية .

ميخا بيرديشفسكى (١٨٦٥م - ١٩٢١م) :

كاتب روسي ومفكر صهيوني رومانتىكى كوني التزعة حلولى الرؤية
كان يكتب باليديشية والعبرية . وُلد في مدينة ميدزيبوز الروسية ، مَهْدُ
الحسيدية في القرن الثامن عشر ، ونشأ في عائلة عريقة في التدين ، وكان
أبوه حاخاماً ، وفي سن السابعة عشرة كان بيرديشفسكى قد تلقى
تعليماً كاملاً ولم بكل تعاليم القبالة والحسيدية .

حاول في كتاباته الأولى أن يفعل ما وصفه فيما بعد بأنه المستحيل :
التوفيق بين التقاليد الحاخامية وحركة الاستنارة اليهودية . وفي عام
١٨٩٠ ، انتقل إلى أوروبا الغربية ليتلقى شيئاً من التعليم العلماني
(المحرم) . وأثرت فيه هذه الفترة القصيرة ووسمته بسماحها . ثم بدأ بعد
ذلك في الترحال بين برن وبرلين حيث قضى أكثر فترات حياته
إبداعاً .

كتب بيرديشفسكى (اسمه الأدبي المستعار « بين جوريون » كثيراً
من المقالات النقدية والقصص القصيرة والطويلة العبرية اليديشية . وتأثر
بيرديشفسكى بأفكار شوبنهاور بشأن علاقة الفرد بالجماعة ، وتأثر أيضاً
بأفكار نيتشة وبخاصة أفكاره بشأن السوبرمان أو الفرد الممتاز المتميز

الذى يرتفع على الجماعة والتقاليد ، كما تبع نيتشة في إصراره على « إعادة تقييم جميع القيم » وإحضاعها للنقد الكامل . لكل هذا نجد أن بيرديشفسكى يهاجم التقاليد اليهودية الروحية في خضوعها وخضوعها وفي تكبيلها للإنسان بالطقوس المميتة . كما هاجم بعض أدباء العبرية (بياليك وكلاوزنر) واليديشية (مندلى موخير سيفاريم) ولكنه شجع بعض الأدباء الجدد مثل حايم برنر من يشاركونه رؤيته للعالم . وقد هاجم بيرديشفسكى وبشدة جماعة أحباء صهيون وآحاد هعام لأن الأخير أكد أهمية ما سماه « القيم الروحية » ، ولعله لو قرأ كتاباته بقليل من الإمعان لاكتشف التزعة النيتشوية القومية فيها ، ولاكتشف أيضاً أن مفهوم آحاد هعام بشأن « السوبر أمة » أو الأمة الكاملة لا يختلف كثيراً عن مفهوم السوبرمان أو الإنسان الكامل ، ولاكتشف أن القومية العضوية مفهوم يجمع بينه وبين آحام هعام ونيتشة . كتب بيرديشفسكى أكثر من ١٥٠ قصة بالعبرية وكتب بعض القصص باليديشية . وتصوّر قصصه تمزق اليهودى في العصر الحديث بين تقاليد اليهودية وروح الحضارة الغربية ، والشتت هو الخلفية الأساسية لعديد من هذه القصص التى تتضمن نماذج بشرية مختلفة تجابه مشاكل يهودية محددة مثل التقاليد الخائفة والزيجات الاضطرابية المرتبة . وتعالج القصص الدوافع الإنسانية لهذه الشخصيات في تصارعها مع كل هذه العوائق والحواجز . وتدور معظم قصصه حول موضوعين أساسيين :

١ - الحياة اليهودية في المدن اليهودية الصغيرة في آخر القرن التاسع عشر التى يقسمها دائماً فمر يفصل حى اليهود عن حى الأغيار.

٢ - حياة الطلبة اليهود من شرق أوروبا في وسط أوروبا وغربها
وإحساسهم بالانبهار والاعتراب .

ويمكن القول بأن هذين الموضوعين هما أهم موضوعين في حياة معظم
المفكرين الصهاينة ، بل ومعظم المفكرين والأدباء الذين تناولوا الموضوع
اليهودي . وثمة صراع يدور بين الخير والشر وبين الجمال والقبح ينتهي
بهزيمة الخير والجمال . فالشتت - ساحة هذا الصراع - قد وقع في قبضة
قوة عمياء قاسية . وتوجد في روايته أنماط إنسانية متكررة : امرأة ذكية
رقيقة متزوجة من إنسان فظ خشن - رجل لا قسمت له ولا ملامح
طالب متمرد على أوضاع مجتمعة - أشخاص يقضون حياتهم يعانون من
الزيجات المرئية - شخصيات متمردة على التراث اليهودي مثل
المهرطقين ومدعى المشيخانية . ومعظم قصصه ذات طابع انطباعي
تتكون من مونولوجات عاطفية مع استطرادات هي أقرب إلى المقالات .
وطريقة السرد في قصصه تشكل انتقالاً من أشكال السرد الخاصة بالقرن
التاسع عشر إلى الأشكال الأكثر دقة .

جمع بيرديشفسكى بعض الأساطير المسيحية ، واهتمامه بالمسيحية
رغم تمرده على التراث يصلح مدخلاً لفهم فكره الصهيوني . فهو يعيد
تقييم اليهودية ويذهب إلى أن اليهودية القديمة إنما هي في واقع الأمر
العبادة الإسرائيلية القربانية الوثنية، التي تدور حول عبادة الطبيعة والكون
والأصنام ، وان الطبقة التوحيدية (التوراتية) دخيلة على هذه العقيدة .
وفي كتابه سيناء وجرزيم ، يذهب بيرديشفسكى إلى أن مؤسس العقيدة
اليسرائيلية هو يوشع بن نون وليس موسى . فكأن بيرديشفسكى يطالب

بالعودة إلى الوثنية الحلولية القديمة كطريقة للتحرر من اليهودية
الخاصية . فالبعث القومي بعث كوني وثني حلولي ، وعلى اليهود أن
يرفضوا عبوديتهم الظاهرة التي حولتهم إلى أمة من الرجال الذين نضبت
قواهم الطبيعية واسترعبوا في يهودية مجردة خالية من الحياة . عليهم
العودة إلى يهودية جديدة : يهودية تضع اليهودي قبل اليهودية وإسرائيل
قبل التوراة ، وتعيش في ونام مع الطبيعة ، وتتغنى بنشيد الأنشاد الذي
يحتفى بالجسد ونشيد داود الذي يتغنى بالطبيعة السامية التي لا حدود
لها ، الطبيعة التي هي منبع كل شيء ، منبع بكل ما يحيا وروحه . هذه
الوثنية الجديدة ترى أن جوهر الحياة هو السيف ، بل هو تجسيدها في
أعرض خطوطها المادية والجوهرية إذ حل السيف محل التوراة . وهنذه
العودة للطبيعة هي برنامج بيرديشفسكى لإصلاح اليهود واليهودية ،
وعلى حد قوله فإن الشعب المقدس سيصبح الشعب الحي .

ويمكننا أن نسمى صهيونية بيرديشفسكى « الصهيونية الطبيعية »
أو « الصهيونية الكونية » أو « الصهيونية العضوية » باعتبار أن الإنسان
اليهودي سيتمد هويته وكيونته من خلال العودة للطبيعة والالتحام بها
وبفقدان الذات فيها . ولكن الطبيعة التي يعود إليها هي في واقع الأمر
بديل الأرض في الثالوث الحلولي العضوي في مرحلة موت الإله :
الأرض الإنسان روح الحياة التي تربط بينهما (التي هي أيضاً العنف
أو السيف) . ومثل هذه الصياغة الحلولية العضوية الحيوية لا تختلف عن
كثير من الصياغات اليهودية التقليدية ، فاليهودية تحوى داخلها طبقة
حلولية تجبُّ الطبقة التوحيدية بحيث تحمل أصنام جرزيم محل التوحيد .

وصهيونية بيرديشفسكى لا تختلف كثيراً في بنيتها عن صهيونية جوش إيمونيم الحلولية العضوية ، فكلاهما جعل الأرض موضع الحلول وأهم عناصر الثالث الحلولى . ولعل هذا التشابه بين المتمرّد بيرديشفسكى ومعظم الصهاينة جعله يُفسّر سرّ حماسه للحسيدية وقصصها . ويمكننا أن نقول إن بيرديشفسكى لا يعارض الحلولية التقليدية وإنما يعارض سكوتها وحسب ، وهو مكوّن اضطرت إليه بعد فشل كثير من الحركات المشيخانية فتحوّلت النزعة المشيخانية العدمية المدمرة إلى توجّه نفسى وغوص فى الذات ، عدميته وتدميرته كانت موجودة بالقوة ، ثم تفجرت فى الدولة الصهيونية وأصبحت توجد بالفعل . وقد صدرت أعمال بيرديشفسكى الكاملة فى ٢٠ جزء (١٩٢١ م - ١٩٢٥ م) .

جوزيف برينر (١٨٨١م - ١٩٢١م)

مؤلف روسى يهودى يكتب بالعبرية واليديشية ، تباثر بأعمال بيرديشفسكى وبرؤيته للحياة وأعمال مندلى موخير سيفاريم . وتأثر ، شأنه شأن كثير من المؤلفين الذين يكتبون بالعبرية فى عصره ، بأعمال دوستوفسكى وتولستوى ونيتشة . وُلد فى أوكرانيا ، ودرس فى إحدى المدارس التلمودية العليا ، ثم عمل ككاتب (سفير) حيث كان يكتب رقائق التوراة والتمايم ، وانضم إلى حزب البوند . وقد كتب بعض القصص من أهمها روايته القصيرة فى الشتاء (١٩٠٢ م) التى تُعدّ أول أعماله الروائية المهمة .

عاش برينر بعد عام ١٩٠٠م في وارسو ، وخدم في الجيش الروسي بين عامي ١٩٠١م و ١٩٠٤م ، ولكنه هرب إلى لندن حيث نشط في جماعة عمال صهيون ، ثم بدأ العمل بالطباعة والنشر والتأليف بعض الوقت ثم استقر في فلسطين حيث قام بتدريس العبرية في يافا عام ١٩١٥م ، ثم اضطر إلى تركها . ولكنه عاد مع القوات البريطانية واستمر في نشاطاته الصهيونية العديدة التي كان من أهمها المساهمة في تأسيس المستدروت . وقد قُتل عام ١٩٢١م أثناء بعض أعمال المقاومة العربية ضد الاستعمار البريطاني والصهيوني .

وُصفت أعمال برينر الروائية بأنها انعكاس مباشر للحياة وحياته هو على وجه التحديد ، ولذا نجد أن الراوي فيها هو الشخص الأول (المتكلم) . ومهما اختلفت الأسماء والشخصيات الأساسية فهم في نهاية الأمر برينر نفسه : يورمان في قصة « في الشتاء » وأبراسون في قصة « حول النقطة » ، وإيعازر في قصة « في المساء والصبح » ، ويوحانان ماهاراشك في قصة « خلف الحدود » ، وشاؤول جمسو في قصة « بين الحروب » ، ويمجزيئيل حيفز في قصة « الفرار والفشل » . وتأخذ أعماله الأدبية الأشكال التالية :

١ - القصة الوثائقية التي تتبع منهج التعاقب التاريخي .

٢ - المذكرات التي تم تحريرها وتحويلها .

٣ - الراوي الذي يرى الأحداث بعينه ولكنه لا يشارك فيها .

وتُقدّم كثير من شخصيات برينر اعترافاتها وتكشف خبايا نفسها بنفسها ، وهي شخصيات تُغيّر مكان إقامتها لتكتشف أن هذا لا يجدي

فتيلاً إذ أن الخلل في الداخل ، ولذا فهي تنتهي بالإحساس بالمرارة تجاه نفسها وتجاه العالم . وكثير من أبطاله هم أبطال مضادون ، بعضهم قد يبحث عن معنى لحياته ، أو عن هويته والبعض الآخر يمتسلم تماماً لقدره (من أهم أعماله رواية من هنا وهناك وهي مستوحاة من حياة جوردون الذي تتضمن شخصيته قدراً من الإيجابية والتفاؤل) .

حاول برينر أن يقدم الواقع من خلال لغة الحديث العبرية ، وهي لغة لم تكن موجودة آنذاك ، ولذا فقد حاول تطعيم اللغة بكلمات ومفردات من اليديشية والروسية والألمانية . كما أن بنية الجملة ذاتها كانت تعكس محاولته أن يدخل الحياة على أسلوب العبرية الحديثة ، ولذا فقد كان كثيراً ما يلجأ إلى التكرار واستخدام الجمل الناقصة وعلامات الاستفهام والتعجب وكان لا يستخدم الصور الشعرية إلا في اللحظات التي تصل الأحداث فيها إلى الذروة .

هاجم برينر أحام معام وكان محور الصراع مفهوم المنفى . فبرينر كان يعبر عن وجهة النظر الاستيطانية العمالية بكل شراستها وتبلورها وتطرفها ذاهباً إلى أن يهود العالم كيان لا بد من تصفيته ، ومهمة اليهود هي الاعتراف بوضاعتهم منذ بدء التاريخ حتى يومنا .